نظرية التربية الإسلامية

للفرد والمجتمع

الشيخ محمد الغزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين

كلية الشريعة

النظرية التربوية الاسلامية

بحث مقدم
لندوة أسس التربية الاسلامية
المنعقدة في ١١-١٦ / ٦ / ١٤٠٠هـ
بمكة المكرمة

اعداد
الشيخ محمد قطب
أستاذ بكلية الشريعة
قسم الدراسات العليا الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

—

النظريـة التربوية الاسلامية

تقوم التربية الاسلامية على أساس أن العبادة الصحيحة لله هى وسيلة التزكية للنفس الانسانية التى يشير اليها القرآن الكريم : " ونفس وما سواها ، فألهمها فجورهـا وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها " . وهى كذلك وسيلة التربيـة ، ذلك أن الهدف الأخير للتربية هو تزكية النفس. ومن ثم كانت وسيلة التزكية هى ذاتهـا وسيلة التربية .

ولقد تنظر الجاهلية المعاصرة التى يصدرها الغرب لسائر البشرية نظرة ريب بـل نظرة استنكار لكلمة "العبادة" ولقد ترفض "العبادة" رفضا باتا بوصفها وسيلة الـى أى خير. بل لقد ننظر نحن أنفسنا نظرة الريب ذاتها الى كون العبادة هى الوسيلـة المؤدية الى التربية الصحيحة حين نرى نماذج كثيرة ممن يقال عنهم انهم يستكثرون مـن "العبادة" ويتعمقون فيها ، على صورة من سوء السلوك أو سوء التعامل أو الانحصـار وضيق الأفق لا تعطى صورة طيبة للتربية ، بل قد تؤدى - بالعكس - الى النفور مـن تلك النماذج ومن القاعدة التى تقوم حياتهم عليها .

فأما الجاهلية المعاصرة فلها ظروفها التى أدت بها الى هذه النظرة . فقد كانـت صورة الدين الكنسى عندها منفرة بالفعل وغير صالحة للحياة . وعلى الرغم من التهذيب الروحى الذى تدعو اليه المسيحية ، والتواضع وعدم الاستكبار ، والارتفاع على متـاع الجسد ومتاع الأرض ، فان المبالغة التى وصلت اليها توجيهات الكنيسة واتخذت صورة الرهبانية لم تكن صالحة للحياة السوية ، فضلا عن الفساد الذى أدت اليه فى الأديـرة والأماكن المخصصة للعبادة مما أشار اليه القرآن الكريم : " ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون " (سورة الحديد : ٢٧) .

وفضلا عن ذلك فان الطغيان الذى مارسه رجال الدين الكنسى باسم الديـن ، والذى تمثل فى طغيان روحى يطالب الناس بالتسليم المطلق وعدم المناقشة فى عقائـد ما أنزل الله بها من سلطان ولا يستطيع العقل أن يسيغها ، وطغيان سياسى يلـزم الناس بالخضوع للأهواء السياسية للبابوات والكرادلة ، وطغيان مالى يلزم الناس بدفع

عشور أموالهم للكنيسة لكى يكتنز بها رجال الدين ويغرقوا فى الشهوات المحرمة ، وطغيان على يلزم الناس بأفكار عن شكل الأرض وعمرها وعمر الانسان فوقها يكذبها العلم النظرى والتجريبى ..

هذه الألوان المكثفة من الطغيان الكنسى ، بالاضافة الى الفساد الروحى والفكرى والخلقى لرجال الدين ، ومصادقة تعاليم الكنيسة للطبيعة البشرية السوية ، كل ذلك أدى بأوربا فى النهاية الى نبذ الدين وكل ما يتصل به من قيم صحيحة أو محرفة ، والبحث عن أسلوب آخر للحياة لا يتصل بالدين .

ولقد كانت أمام أوربا فرصة - لو أرادت - أن تخرج من ضلالات الكنيسة الى نور الاسلام . ولكن الكنيسة كانت قد سدت الطريق بين أوربا والاسلام حين كلفت كتابها فى القرون الوسطى أن يكتبوا ضد الاسلام ويشوهوا صورته فى نفوس الأوربيين ، وحين أشعلت الحروب الصليبية بحمية جاهلية تقاتل بدافع العصبية لا بحثا عن الحق ، ولا تمكينا للقيم العليا فى الأرض . لذلك فان أوربا - حين خرجت من قرونها الوسطى المظلمة وبدأت تبنى نهضتها - قد عادت الى الجاهلية الاغريقية الرومانية تستمد منها أصول نهضتها وتبنى فوقها " حضارتها " . ومن المعلوم أن الجاهلية الاغريقية الرومانية كانت جاهلية وثنية تعبد العقل وتعبد الجسد ولا تكاد تؤمن بالروح . ولكن الحقيقة الأكثر اتصالا بموضوعنا هى تصورها لحقيقة الصلة بين الانسان والآلهة . انها ليست علاقة مودة بين الطرفين بل علاقة خصام ونزاع . الآلهة تريد سحق الانسان وتحطمه ، والانسان يريد أن يتمرد على الآلهة ليثبت وجوده وفاعليته فى الأرض .

ولعل أسطورة بروميثيوس سارق النار المقدسة واضحة الدلالة على المعنى الذى نشير اليه . تقول الأسطورة ان " زيوس " كبير الآلهة خلق ابيمثيوس الذى يرمز الى الانسان من قبضته من طين الأرض ، وسواه على النار المقدسة التى ترمز الى المعرفة ، ثم أسكنه فى الأرض فى ظلمة تحيط به من كل مكان ترمز الى الجهل . ومن ثم فقد أشفق عليه كائن أسطورى يدعى " بروميثيوس " فسرق النار المقدسة من زيوس وأعطاها للانسان لتنير له طريقه وتعرفه بما حوله . ولكن زيوس غضب غضبا شديدا لسرقة نار المعرفة منه - ونلاحظ أنه قد عجز عن استردادها من الانسان ! - فصب جام غضبه على بروميثيوس وعلى ابيمثيوس معا . فوكل ببروميثيوس نسرا يأكل كبده طيلة النهار وتنبت له كبد جديدة فى الليل ليأكلها النسر فى النهار وهكذا فى عذاب أبدى . وأما ابيمثيوس - الذى يرمز الى آدم - فقد أرسل اليه باندورا التى ترمز الى حواء ، فى الظاهر لتؤنس وحشته ، وفى

الباطن لتفسد عليه حياته ، اذ أرسل معها هدية عبارة عن صندوق مغلق ، فلما فتحه اذا هو مملوء بالشرور التى تناثرت من الصندوق وملأت أقطار الأرض !

والأسطورة واضحة الدلالة . فان الاله زيوس حين خلق الانسان لم يرد له الهداية لأنه وضعه فى الأرض بغير نور يضيء له ما حوله ويبصره بطريقه ، فلما حصل الانسان - بطريقة خارقة - على نار المعرفة أصبح الاله عدوا له ناقما عليه خشية أن ينافسه فى ألوهيته فأراد كبته وتحطيمه وتنغيص حياته بعد أن عجز عن استرداد المعرفة منه . والانسان بالتالى ناقم على الاله الذى يرسل له الشر ويعوقه عن النهوض كلما أراد النهوض . .

هذه النظرة - على سذاجتها من ناحية ، وشناعتها من ناحية أخرى - هى التى تكمن فى نفس الأوربى الجاهلى المعاصر ، فتنفره من الدين ، ومن الخضوع لله ، وتشعره أن الخضوع لله يورث نفسه السلبية والعجز وعدم الفاعلية ، وأنه لا يثبت ذاته ولا يمارس فاعليته فى الأرض الا بالتمرد على الله وعصيان أوامره . ولقد قال هذا صراحة كاتب غربى جاهلى معاصر هو جوليان هكسلى فى كتابه "الانسان فى العالم الحديث"(١) حيث قال ان الانسان كان يخضع لله لأنه كان جاهلا وعاجزا أمام قوى الطبيعة ، واليوم بعد أن تعلم وسيطر على الطبيعة فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ماكان يلقيه من قبل فى عصر الجهل والعجز على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله . .

لذلك تنفر الجاهلية المعاصرة من الدين ، وترفض أن تكون العبادة الصحيحة لله هى أساس التربية السليمة للانسان ، وترى أن الانسان ينبغى أن يصوغ حياته ويشكلها بعيدا عن الدين وبعيدا عن الله . وتظهر فى الغرب أمثال هذه الكتب "الانسان يصنع نفسه Man makes himself" و "الانسان يقف وحده Man stands alone" أى دون معونة الله ، ودون وصاية من الله ، ليثبت ذاته ويكون ايجابيا وذا فاعلية فى الأرض .

ومنذ "كونت" مؤسس الفلسفة الوضعية ، بل قبله بكثير صار هناك تعمد للقول بأن كل الفضائل والقيم العليا يمكن استمدادها من مصادر أخرى غير الدين ، بل القول بأنها حين تستمد من غير الدين تكون أفضل وأعمق أثرا وأكثر أصالة مما لو استمدت هى ذاتها من الدين ! بحجة أنها حين تستمد من الدين تكون فضائل وقيما سلبية ، أما حين تستمد من مصدر آخر فانها تكون ايجابية ومن ثم تكون أكثر فاعلية وتكون أنفع للناس !

---

(1) Julian Huxley, Man in the modern World.

وحين يتحدثون هناك عن التربية الديمقراطية أو التربية الأخلاقية فانهم يقولون ان القيم الأخلاقية ينبغي أن تنمو نموا حرا لكي تكون ذات ثمرة ، ولا ينبغي أن تكون مفروضة فرضا من مصدر له قوة قاهرة ، أي أنها لا ينبغي أن تكون مفروضة من عند الله ولا آتية من مصدر الدين !

ولقد تشير بعض كتب التربية المتعقلة الى الدين بوصفه عاملا مساعدا من عوامل التربية ، أي عاملا مهذبا للسلوك البشري ، أما ان يكون هو قاعدة التربية وقاعدة الحياة فأمر لا تفكر فيه الجاهلية المعاصرة على الاطلاق !

أما نحن فكثيرا ما يساورنا الشك فيما يسمى "التربية الدينية" أن يكون لها أثر حقيقي في حياة الانسان ، أو يكون لها الأثر الذي تتوق اليه حين نتحدث عن التربية في صورتها المثلى ، وذلك لعاملين في آن واحد :

الأول : اننا تأثرنا ولا شك قليلا أو كثيرا بالغزو الفكري في ميدان البحوث التربوية كما تأثرنا به في مجالات أخرى كثيرة ، فصرنا أميل الى زحزحة الدين عن مكانه في التربية ان لم نبعده ابعادا كاملا كما أبعدته أوربا من قبل .

والثاني : اننا ننظر الى بعض من نسميهم "متدينين" فلا يعجبنا منهم طريقة تعاملهم ولا طريقة تفكيرهم ، فنقول ان هذا هو أثر التربية الدينية ، فلنبعد عنها ، أو فلنخفف منها على أقل تقدير !

كلتا النظرتين - نظرة أوربا ونظرة المتشككين من بيننا - قد تأثرت بعوامل معينة أبعدتها عن الحقيقة . فلنحاول هنا أن نشرح الصورة الحقيقية للتربية الاسلامية ، وأثرها في حياة البشرية .

ولقد كان يكفينا أن نقول ان الأجيال الأولى من المسلمين ، التي استحقت بالكامل وصف الله لهذه الأمة : "كنتم خير أمة أخرجت للناس" (سورة آل عمران : ١١٠) ، هي النموذج الحي للتربية الاسلامية الصحيحة .

ولكننا حين نقول ذلك للناس نبدو في أعينهم كأننا نثير وجدانهم أكثر مما نخاطب عقولهم ! وأننا نتحدث عن صورة مثالية غير قابلة للتطبيق ، مع أننا نتحدث عن واقع مشهود رواه التاريخ ، لا عن قصص وهمية من صنع الخيال ! ولكن البون الشاسع بين هذا الواقع وبين الواقع الذي عاشته الأجيال الأولى من المسلمين ، هو الذي يجعلنا نتوهم أن ذلك التاريخ كان خيالا أسطوريا لا واقعا وعاه التاريخ !

وأيا كان الشأن فى واقعنا الذى نعيشه ، ومدى بعده عن الصورة النموذجية التى عاشتها الأجيال الأولى ، فان علينا دائما أن نبسط الصورة الصحيحة للتربية الاسلامية ، عسى أن تعيها أذن واعية ، وعسى أن تلتقطها الأجيال الصاعدة ، .. العائدة اليوم الى الاسلام فى رغبة وشغف ، تريد أن تحققه - فى صورته الشفيفة الرائعة - مرة أخرى فى عالم الواقع كما تحقق مرة من قبل ، لعلهم أن يكونوا - باذن الله - هم الغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس ، والذين يزيلون الغربة الثانية للاسلام التى تحدث عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا حين قال : " بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء يصلحون ما أفسد الناس " ، (أخرجه مسلم) .

.. .. ..

العبادة الصحيحة لله هى توحيده سبحانه وتعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وطاعته فيما أمر به أو نهى عنه ، وذلك - من الوجهة الدينية - هو حق الله على العباد بما أنه هو خالقهم ، والههم وربهم . وذلك فى الوقت نفسه - من الوجهة التربوية - هو السبيل لاصلاح النفس البشرية وتزكيتها ، وهو الهدف الأخير من التربية الاسلامية . ولا فرق - فى الاسلام - بين الوجهة الدينية وأية وجهة أخرى ، مما يسمى فى الجاهلية المعاصرة دنيويا أو " علمانيا " ، أى لا دينيا ، مثل التربية أو السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو الأخلاق أو العلم . فكلها فى الاسلام شىء واحد مبنى على العقيدة ومستمد من المنهج الربانى الشامل الذى يشمل كل نشاط الانسان ويربط بينه برباط واحد يمنعه من التشتت فى كل اتجاه . ولكن الذى يعنينا هنا - فى مجال التربية بصفة خاصة - أن ذات الأداة المستخدمة فى العبادة - وهى التوحيد - هى نفسها المستخدمة فى التربية بلا افتراق ، وانها هى هى التى أخرجت تلك النماذج الفريدة من البشر الذين كونوا الأجيال الأولى من المسلمين ، ووصفهم الله بأنهم خير أمة أخرجت للناس .

فلننظر الآن كيف يؤدى التوحيد - والايمان باليوم الآخر بوصفه جزءا متما لعقيدة التوحيد - الى تزكية النفس ، والى جعلها على ذلك المستوى النادر من التربية الذى رأيناه فى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تلاهم من الأجيال التى انتهجت نهجهم وسارت على هداهم .

التوحيد عقيدة .. فما صلة العقيدة بالحياة من جهة . وما بال " الموحدين

اليوم لا يمثلون الصورة الصحيحة للتربية ، وما بالهم يشتملون على كثير من الخصال المنفرة من التخلف في جميع الميادين ، وبدان الأخلاق في مقدمة هذه الميادين ؟!

لكي ندرك هاتين القضيتين ينبغي أن ندرك مجموعة من الحقائق المتعلقة بالنفس الانسانية في صميمها ، وان كانت كذلك تتعلق بالدين .

الانسان عابد بطبعه .. تلك حقيقة ينبغي أن ندركها من استقراء التاريخ البشري. وليس الفرق بين انسان وانسان في الحقيقة هو ان انسانا يعبد والآخر لا يعبد . بل الفارق هو أن انسانا يعبد الله والآخر يعبد الها آخر غير الله ، قد يكون صنما أو وثنا أو يكون هو الهوى كما قال الله : " أفرأيت من اتخذ الهه هواه " (سورة الجاثية آية ٢٣) . أو يكون أي معبود ، لكن الانسان في النهاية لابد أن يكون عابدا لمعبود ما ..

وقد تبدو الجاهلية المعاصرة استثناء من تلك الحقيقة المدركة من استقراء التاريخ . ولكنها في الحقيقة تأكيد لها . فكل ما في الأمر أن هذه الجاهلية لم تعد تعبد الله ولكنها تعبد آلهة أخرى تسميها الدولة أحيانا أو تسميها الحزب أو المذهب. أو تسميها المصلحة العامة . أو تسميها المجتمع . أو تسميها العقل . أو تسميها العلم . أو تسميها التقدم المادي . أو تسميها "الانسان" المسيطر على الطبيعة . أو تعبدها دون أن تسميها ، كما تعبد "الموضة" وكما تعبد الشهوة : شهوة الجنس أو شهوة المال أو شهوة السلطان .

بل ان هذه الجاهلية الكافرة الجاحدة لتعرف الله في أعماقها ثم تنكر وجوده كما فعلت الجاهليات القديمة بآيات الله : " وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا " (سورة النمل : ١٤) .

ان رائد الفضاء الأول " جاجارين " الروسي الذي ولد وتربى في ظل الشيوعية التي تعلم الناس الالحاد في المدارس وتقول لهم : لا اله .. والكون مادة .. رائد الفضاء هذا حين صعد الى الفضاء أخذته روعة الكون واستشعر عظمة الخالق ، فقال للمؤتمر الصحفي الذي استقبله عند عودته الى الأرض : " حين صعدت الى الفضاء أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله ! " وقد غضبت "الدولة" بالطبع لهذا التصريح الذي يحطم في لحظة كل ما أسسته من الالحاد في نصف قرن ، فأمرته بتصحيحه ! فزاد عليه في القراءة الثانية قال : " فمضيت أبحث عن الله فلم أجده .." لم يجده بأمر الدولة !

كلا ! ان الانسان عابد بطبعه . فاما أن يعبد الله واما أن يعبد غير الله . . فأيهما أقوم للنفس البشرية وأفعل فى صلاح شأنها : أن تؤمن بالحق وتعبد الله وحده بلا شريك ، أو تؤمن بالباطل وتعبد آلهة لا وجود لها فى الحقيقة ؟ !

تلك هى نقطة الابتداء فى الدين . وهى هى نقطه بتداء فى التربية كذلك ذلك أن حياة الناس بحذافيرها تبدأ من هذه النقطة الجوهرية ، ثم تمتد فتشمل كل نشاط الانسان .

وقد حاولت الجاهلية المعاصرة أن تبعد الله من فكرها ووجدانها ، ثم تنشد الحق فيما دون ذلك وتزعم أنها تصل اليه وتعيش به .

وما نريد أن ندخل فى جدل واسع مع تلك الجاهلية ، ويكفينا ما نراه من آثارها من الفساد الشامل على وجه الأرض ومن الشقوة التى تصبها على البشرية كلما أمعنت فى السير على خطاها ، ولقد تصل الجاهلية الى حقائق جزئية كثيرة فى العلم وتطبيقاته العملية ، وتبنى بها حضارة مادية شاهقة البناء ، ولكن ذلك لا يعوض آثار فقدانها للحق الأكبر فى حياتها ، وقيام حياتها على عبادة غير الله من الآلهة الزائفة التى تعبدها ، فتفقدها كرامتها الانسانية وتفقدها أمنها وبركتها : " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون " (سورة الأعراف : ٩٦) وما التمكين المادى الذى تمارسه تلك الجاهلية الا ذلك الذى قال عنه رب العالمين : فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون " (سورة الأنعام : ٤٤) .

انه مستحيل ! مستحيل أن يعبد الانسان غير الله ثم تستقيم حياته كما ينبغى " للانسان " أن يكون . ويكفى ما نراه من الفوضى الجنسية والانحطاط الأخلاقى والنضوب الروحى وعبودية الانسان للآلة ، وعبوديته للمادة ، وعبوديته للشهوات فى الغرب ، وعبوديته للدولة والمذهب والحزب فى الشرق الشيوعى . . يكفى هذا لنعلم أن ذلك مستحيل .

ومن ثم تكون النقطة الابتدائية لتنشئة " الانسان الصالح " هى التوحيد . . هى العبادة لله الحق .

وعلى ذكر الانسان الصالح ينبغى أن نفرق منذ بدء الطريق بين " الانسان الصالح " الذى يهدف الاسلام الى تربيته وبين " المواطن الصالح " الذى تهدف لتربيته كل المناهج الجاهلية فى الأرض . فقد يبدو لنا لأول وهلة أنهما شيء واحد ، وأن الخلاف هو

في التسمية فحسب . ولكن يكفينا أن نقول ان الجندي الروسي الذي يقتل الأفغانيين بالنابالم والقنابل السامة وقنابل الجراثيم هو " مواطن صالح" في عرف الدولة التي أرسلته ليرتكب تلك الجرائم في أفغانستان وفي عرف العالم الشيوعي كله وما يدور في فلكه من دويلات ! وان السياسي الأمريكي الذي يؤيد اليهود في عدوانهم المستمر على العرب منذ انشاء اسرائيل حتى اليوم ويمكن لدولتهم وهي في حالة الاعتداء هو "مواطن صالح" في عرف دولته وفي عرف العالم الصليبي كله الذي يؤيد أي عدوان يقع على المسلمين في أي مكان في الأرض . أما الانسان الصالح الذي يريده الاسلام فهو ذلك الذي وعلى وطبق قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين" (سورة النساء : ١٣٥) وقوله تعالى : " ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى " (سورة المائدة : ٨) ولم يوجد قط الانسان الصالح بهذه الصورة الا في ظل التوحيد ، لأن الذي يعبد الله وحده لا يتغير خلقه من مكان الى آخر ولا من موضوع الى آخر ، لأن الله الذي يعبده واحد في كل مكان ، وواحد مع كل موضوع . أما الذي يعبد ذلك الوثن الذي اسمه " الوطن" فوجهته الى ذلك الوثن ، وهو محدود بمكان معين وبمصالح معينة ، ومن ثم فهو في خدمة وثنه حيثما وجهه . فاذا وجهه الى ايقاع الشر بالآخرين فهو مواطن صالح بمقدار ما يبلغ في هذا الشر ، وبمقدار ما يقول : لبيك ياوطن ! أو لبيك يا وثن ! ولم يشهد التاريخ أمة يعيش فيها المخالفون لها في العقيدة من يهود ونصارى ومجوس ، آمنين على أنفسهم ومصالحهم وعقائدهم وعباداتهم ومعابدهم كما حدث ذلك في الأمة التي تعبد الله وحده بلا شريك .

ثم نمضي خطوة أخرى مع التوحيد في مجال آخر ، وثيق الصلة بالعبادة وبالتربية في آن واحد ، فقد تحدثنا عن توحيد الله في ذاته ، ونتحدث الآن عن توحيد الله في أسمائه وصفاته .

يقول الله سبحانه وتعالى : " ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين" (الذاريات : ٥٦) ويقول : " وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله" (يونس : ١٠٧) أي أنه هو الضار النافع . ويقول : " هو الذي يحيي ويميت فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون" (غافر : ٦٨) أي أنه هو المحيي والمميت ويقول : " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير" (آل عمران : ٢٦) أي أنه

هو مالك الملك المعز المذل . . الى آخر أسماء الله الحسنى وصفاته .

ولو أنك سألت أى انسان فى الطريق : من الذى يرزقك ؟ لقال بداهة وعلى الفور : ان الله هو الذى يرزق ، ولا رازق غير الله . . ولكن . . حين يختار هذا الرجل فى رزقه لأى سبب من الأسباب ، أتراه يظل على هذه البديهية التى نطق بها وهو آمن سالم مطمئن ؟ أم يقول ، على غير وعى بما يقول ، ان فلانا من الناس يريد أن يقطع رزقى ؟! ان دلالة قولته هذه أن تلك الحقيقة كانت عنده حقيقة ذهنية فحسب ، يعيها بذهنه ولكنها لم تتعمق فى حسه حتى تصبح يقينا نفسيا لا يتزلزل فى الأحداث . ان هذا الرجل وان كان مسلما ومؤمنا الا أنه ضعيف الايمان . هذا من جهة العقيدة . وهو من جهة التربية لم ينل حظا وافيا من التربية الاسلامية ! والعبادة الصحيحة أن يكون موحدا لله فى أسمائه وصفاته كما هو موحد لله فى ذاته . والتربية الصحيحة هى التى تعمق هذه الأسماء والصفات فى حسه حتى تصبح يقينا نفسيا لا يهتز عند الابتلاء .

والآن فلننظر فى انسان تعمق الايمان فى قلبه ، أى أنه أخذ حظا كافيا من التربية الاسلامية ، كيف يكون موقفه من الأشخاص والأحداث ، ومن القوى الأرضية التى يتعبدها الناس ؟

انه بمقدار ما يتعمق الايمان فى قلبه ، أى بمقدار ما ينطبع بالتربية الاسلامية ، يتحرر من كل الأرباب المرهوبة فى الأرض ، وليكن اسمها الدولة أو الزعيم أو الحزب أو المذهب أو المجتمع أو العرف . . أو أى طاغوت يعبد الناس لنفسه أو يتعبدهم الناس لارضائه من دون الله .

ولننظر : أيهما أفضل فى ميزان التربية ؟ الانسان المتحرر من الأرباب الزائفة أم المستعبد لها لا يستطيع أن يبرم أمرا الا بالرجوع اليها ؟ أيهما أكثر ايجابية وفاعلية ؟ أيهما أكثر انطلاقا وقوة ؟ أيهما أكثر ابداعا وحيوية ؟!

ويعجب الانسان للجاهلية كيف تقلب الحقائق ! بل يسخر الانسان من هذه الجاهلية حين تقول ان العبادة لله تورث السلبية والمحدودية ، وان التربية الحقة ينبغى أن تكون متحررة من القيد ! أى حرية وأى قيد ! وهل توجد أمة فى التاريخ كانت أكثر انطلاقا وأكثر حيوية وأكثر فاعلية من تلك الأمة التى غطت فى أقل من خمسين عاما مساحة تمتد من الشمال الافريقى الى حدود الهند ، وغطت فى عالم القيم والمبادئ ما تعجز عن بلوغه البشرية "المتحضرة!" فى قرنها الجاهلى العشرين ؟!

هل كان الفرد من هذه الأمة أكثر ايجابية وفاعلية أم الروسي الذي لا يملك أن يتحرك حركة واحدة بغير اذن الدولة ، أم الأمريكي الذي لا يملك الا أن يدور في الفلك الذي يرسمه أصحاب رؤوس الأموال ، وان توهم أنه حر - في ظل الديمقراطية - يفعل ما يشاء !

ثم ننتقل خطوة أخرى مع عقيدة التوحيد فنتحدث عن الايمان باليوم الآخر المتمم لعقيدة التوحيد .

ان الايمان يقتضي الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام . والايمان بصفة العدل في جانب الله سبحانه وتعالى يقتضي الايمان باليوم الذي يتم فيه الجزاء العادل على ما أحدثه الناس في الحياة الدنيا ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

هذا من جهة العقيدة . أما من جهة التربية فماذا يصنع الايمان باليوم الآخر في النفس البشرية ؟

ان النفس التي لا تؤمن باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب ، لابد أن تنظر الى القضية على هذا النحو : الحياة فرصة قصيرة محدودة بحدود العمر البشري وهو مهما يظل قصير بالنسبة للشهوات المحببة الى الانسان . والله يقول : " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا .. " (آل عمران : ١٤) .

فماذا تكون النتيجة ؟ النتيجة هي التكالب على متاع الأرض ، لمحاولة اهتبال الفرصة الواحدة التي ان مضت لا تعود ! ومن هذا التكالب ينشأ التدني النفسي والخلقي حين يصبح الانسان عبدا للشهوات ، كما ينشأ التظالم في الأرض ، نتيجة رغبة كل انسان في الاستحواذ على أكبر قدر من المتاع ، فيظلم القوي ويظلم الضعيف . وينشأ الصراع الذي يفسد وجه الأرض . ومصداق ذلك هو الجاهلية المعاصرة بكل حذافيرها ، من فساد واباحية يتعفف عنها بعض أنواع الحيوان ، وصراع مدمر ، وتظالم يبدو واضحا فيما بين الأمم بعضها وبعض ، وان لم يظهر بهذا الوضوح في داخل الأمة الواحدة ، ولكنه موجود بكل تأكيد .

واذا كان توحيد الله في ذاته وأسمائه وصفاته يحرر القلب البشري من قبضة الأرباب المزعومة ، فينطلق يعمل بكل حيويته وفاعليته في واقع الأرض ، مستعليا على الطواغيت ،

فان الايمان باليوم الآخر يحرر ذلك القلب من الأرباب المرغوبة ، من عبودية الهـــوى والشهوات ، فينطلق بكل حيويته وفاعليته يقوم بدور الخلافة الراشدة في الأرض ، أي يقوم بعمارة الأرض على المستوى الأعلى ، المستوى اللائق بالانسان الذي رفعه الله وكرمه ، لا المستوى الحيواني الذي تدنت اليه البشرية في جاهليتها المعاصرة على الرغم مـــن كل فتوح العلم والقوة التي فتحها الله عليها تصديقا لقوله تعالى : " فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . . "

لعل هذا القدر من الحديث عن التوحيد يوضح لنا أثره في التربية ، ويبين لنـــا الفارق الضخم بين الانسان الذي يتربى تربية صحيحة على التوحيد والانسان الذي يتربى على أي منهج آخر غير قائم على التوحيد الخالص لرب العالمين . انه ذات الفرق بين الانسان الصالح والمواطن الصالح الذي أشرنا اليه من قبل .

والآن نستكمل الحديث عن العبادة . فقد قلنا من قبل ان العبادة الصحيحـــة هي توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله ، وطاعته فيما أمر به أو نهى عنه .

وقد مرت ظروف كثيرة على المسلمين خلال تاريخهم الطويل جعلت مفهوم العبـــادة عندهم ينحصر في أداء الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج ، فمن أداها توهم أنه قد أدى كل ما عليه من العبادة لله ، ولم يعد لأحد أن يطالبه بالمزيد ! وذلـــك فضلا عن انحسار مفهوم لا اله الا الله ركن الاسلام الأكبر وقاعدته العظمى حتى تصبح مجرد كلمة تنطق باللسان لا مدلول حقيقيا لها في واقع الحياة .

من هنا يتشكك من يتشكك حين نقول ان العبادة هي أساس التربية الاسلامية كلها ، لأنهم يرون من الناس من يقول لا اله الا الله ، ومن يؤدي الشعائر التعبدية ، بـــل قد يستغرق في أدائها ، ثم هم يسلكون سلوكا في التعامل أبعد ما يكون عن التربيـــة الصحيحة ، ويمارسون ألوانا من ضيق الأفق تدعو الى النفور .

هؤلاء لم يفهموا الاسلام على حقيقته ، ولم يتربوا تربية الاسلام الصحيحة ، وقـــد يكون بعضهم حسن النية بالفعل ، متوجها الى الله بما يظنه مرضيا لله من العبـــادة والسلوك ، فالله يأجره على حسن نيته . وقد يكون بعضهم الآخر جاهلا لاهيا غافلا عن حقيقة لا اله الا الله وان أدى الشعائر على نحو من الأنحاء .

والاسلام على أي حال ليس مسئولا عن هؤلاء ولا هؤلاء . فالاسلام هو ما أنزلـــه الله في كتابه المعظم ، وهو ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بأقوالـــه وأفعاله ، وربى عليه أصحابه رضوان الله عليهم حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس .

ولا اله الا الله التى أنزلها الله فى كتابه وعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ليست مجرد كلمة تقال باللسان . انما هى كلمة تنطق باللسان ، وعقيدة حية فى الوجدان ، وسلوك مشهود فى العيان . انها منهج حياة كامل يطبع المسلم بطابعه ، ويربيه على مقتضياته ، فيصبح انسانا فذا متفردا فيمن حوله ممن لا يعرفون لا اله الا الله : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " (القرة : ١٤٣) .

كما أن العبادة فى مفهومها الاسلامى لا تنحصر قط فى شعائر التعبد ، وان كانت شعائر التعبد جزء ولا شك من العبادة التى افترضها الله على الانسان . والله سبحانه وتعالى يقول : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " وهى عبارة أوسع بكثير من شعائر التعبد ، فمهما استغرق الانسان فى الصلاة والنسك فلن يستغرق هذا الا جزء من حياة الانسان ووقته وجهده ونشاطه . والله يقول انه خلق الانسان لعبادته فحسب ، لم يكلفه الا العبادة ، ولا يقبل منه الا العبادة ، ولم يصرح له أن يصنع شيئا الا العبادة ! وهذا هو مفهوم النفى والاستثناء فى الآية الكريمة . فيستحيل اذن أن تكون الشعائر التعبدية هى كل العبادة المفروضة على الانسان . انما المعنى الحقيقى للعبادة هو ما بينه الله فى آيات سورة الأنعام : " قل : ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له .. " (الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣) . ومن ثم فان الصلاة والنسك عبادة ، والحياة كلها بكل ما فيها من ألوان النشاط عبادة ، بل الموت ذاته عبادة حين يكون لله رب العالمين لا شريك له ، أى حين تنفق الحياة فى مرضاة الله ويكون الموت على طاعة الله وفى سبيل الله .

وحين يؤدى المسلم العبادة على هذا النحو يكون قد تربى التربية الاسلامية الكاملة التى تربت عليها الأجيال الأولى من المسلمين ، فتحقق فيها وصف الله بالكامل ، وكانت " خير أمة أخرجت للناس " .

وعلى هذا المعنى القرآنى تكون اقامة شريعة الله فى الأرض جزء من العبادة المفروضة على الانسان ، ويكون الجهاد لاعلاء كلمة الله جزء من العبادة المفروضة على الانسان ، ويكون المشى فى مناكب الأرض والأكل من رزق الله جزء من العبادة ، ويكون طلب العلم فريضة وجزء من العبادة ، ويكون العمل واحتراف الانسان حرفة يعيش منها جزء من العبادة ، ويكون اتقان العمل جزء من العبادة ، ويكون الزواج وتربية النشء على الاسلام جزء من العبادة ، وتكون رعاية البيت من جانب الرجل والمرأة كليهما جزء من العبادة ، ويكون استثمار المال فيما ينفع الناس جزء من العبادة ، ويكون الانفاق فى سبيل الله جزء من العبادة ، وتكون اماطة الأذى من الطريق جزء من العبادة ، ويكون

تبسمك في وجه أخيك جزءا من العبادة .. وهكذا تتسع العبادة حتى تشمل كل نشاط الانسان ، بل تشمل فكره كذلك ومشاعره حتى وان لم تبد للناس لأن الله يعلم السر وما هو أخفى من السر ، وحياة الانسان كلها - بما فيها فكره ومشاعره وأسراره - ينبغي أن تكون " لله رب العالمين لا شريك له "

ان الشعائر التعبدية كما قلت في الجزء الأول من " منهج التربية الاسلامية هي محطات للتزود في طريق العبادة ، والطريق كله عبادة . والذين يقفون في هذه المحطات لا يغادرونها ولا يسيرون في الطريق ، هم - كما وصفتهم في ذلك الكتاب - " متسكعون في محطات العبادة " وليسوا قائمين بالعبادة الصحيحة كما أمر بها الاسلام ، وقد يجهلون الطريق لأنهم لا يمارسون السير فيه ، وقد يتعثرون فيه حين يسيرون ، لأنهم لم يتدربوا تدربا حقيقيا أو تدربا كافيا على السير فيه . والعبادة الصحيحة هي السير في طريق العبادة كله ، مع التزود من محطات التزود التي أمر الله باقامتها في الطريق من صلاة وصيام وزكاة وحج ، بأداء الفرائض المفروضة والتطوع بالنوافل التي تقرب الانسان الى الله .. ولكنها - أي العبادة الصحيحة - لا تكون بالوقوف في محطات التزود والانصراف عن الطريق .

وحين تكون العبادة على هذا النحو ، والتربية على هذا النحو فكيف تكون الثمرة ؟

وأي ثمرة في الأرض يمكن أن تكون أجمل أو أحب من هذه الثمرة ؟

ان الانسان العابد لله ، على المنهج الاسلامي الصحيح للعبادة ، هو الانسان المستعلي على الأرباب الزائفة سواء الأرباب المرهبة أو الأرباب المرغبة ، المنطلق بكل فاعليته وكل حيويته للقيام بالخلافة الراشدة في الأرض ، أي عمارة الأرض ماديا وروحيا في ذات الوقت ، ليكون بناؤه راسخ الكيان : " أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ؟! " (التوبة : ١٠٩) .

هو الانسان المترابط لأنه يقوم بكل نشاطه : السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والعلمي والخلقي والروحي ... الخ ، على قاعدة موحدة : " قل : ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له .. " لا على قواعد متعددة ومتضاربة كما يحدث دائما في الجاهليات : نشاط الروح - ان وجد - لله ، ونشاط الفكر والجسد لرب آخر هو القيصر ، أيا كانت صورة القيصر على مدار الزمان . والله يقول : " وقال

الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد " (النحل : ٥١) ، ويقول : " ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا ؟ " (الزمر : ٢٩) كلا ! لا يستويان !

وهو الانسان المتوازن لأن الله يأمر بالاعتدال والقصد وعدم الاسراف في أي اتجاه ويأمر بابتغاء الدار الآخرة مع أخذ نصيب الانسان من الدنيا : " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا " (القصص : ٧٧) .

والاسلام يربي على الاعتدال والقصد حتى في عواطف القلب : " أحبب حبيبك هونا ما .. وأبغض بغيضك هونا ما " . ثم ان التوازن يأتي من جانب آخر من ممارسة الحياة على اتساعها وفي شتى جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. الخ ، فلا ينحصر الانسان في جانب من الجوانب فيصاب بالشطط وضيق الأفق ، أو بالافراط أو التفريط . كما يأتي من جانب ثالث من الموازنة بين " الخطوط المتقابلة في النفس البشرية " أي بين الخوف والرجاء ، والحب والكره ، والواقع والخيال ، والحسية والمعنوية ، والايمان بما تدركه الحواس والايمان بالغيب أو بما وراء الحس ، والفردية والجماعية ، والالتزام والتطوع ، والسلبية والايجابية ، مما تحدثت عنه بالتفصيل في الجزء الأول من منهج التربية الاسلامية ولا مجال لتفصيله في هذا المقام .

وهو الانسان المتخلق بأخلاق الله كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو المتخلق بأخلاق لا اله الا الله التي جاء تفصيلها في الكتاب والسنة : " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ...." الى آخر الآيات (سورة الفرقان : ٦٣ - ٧٦) " قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ..." الى آخر الآيات (سورة المؤمنون : ١ - ١١) " أحاسنكم أحاسنكم أخلاقا " " انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ...

وهو الانسان الاجتماعي المتعاون المحب للخير ..

وهو الانسان ذو الشخصية الايجابية ، المتحمل لتبعات أعماله ..

وهو الانسان ذو الحس المرهف المتفتح لآيات الله في الكون ، وللجمال في هذا الكون ..

باختصار هو " الانسان الصالح " .

.. .. ..

ونعرج هنا مرة أخيرة على الجاهلية المعاصرة ونحن فى ختام البحث . فهذه الجاهلية تقول ان التربية الدينية لا تصلح أساسا للتربية الأخلاقية لأنها تقوم على القهر ، فتنتج شخصية سلبية ، بينما الأخلاق ينبغى أن تكون تكونا حرا لكى تكون سليمة المبنى فعالة الأثر .

فنقول أولا ان الدين بأكمله ليس قهرا فان الله سبحانه وتعالى يخير الناس بين الهدى والضلال ، ولكنه فقط يبين لهم عاقبة كل منهما ليكون اختيارهم على بصيرة وعلى وعى كامل بالنتائج : "انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا . انا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا . ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ... " (الانسان : ٢ - ٢٢) .

ويقول سبحانه : " ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟!" (سورة يونس : ٩٩) .

ونقول ثانيا ان الدين شرح وبيان واقناع ، حتى يؤمن الانسان بالحق وهو مطمئن الى صدق ما آمن به . يقول تعالى : " هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين" (آل عمران : ١٣٨) " وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون " (النحل : ٤٤) " قل : انما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا .. " (سبأ : ٤٦) .

فاذا آمن على هدى وبصيرة ، أفيكون عيبا منه أن يلتزم بما آمن أو بما يقتضيه ايمانه؟! ولماذا يكون التزام الشيوعى بالشيوعية فضيلة والتزام الديمقراطى بالديمقراطية فضيلة ، بينما يكون التزام المؤمن بمقتضيات ايمانه رذيلة لا تغتفر ؟!

أما أن المؤمن فى الاسلام يلتزم بما فرضه عليه ربه ، ولا يشارك هو فى صنع القرار ولا خيرة له فيه (الا فى المباح أو المتروك للاجتهاد بالشروط المبنية فى الشريعة) فهذا أمر صحيح وصريح : " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم " (الأحزاب : ٣٦) . ولكن مجال المقارنة هنا مع حكم الجاهلية غير قائم على الاطلاق . فالأمر هنا صادر من رب العالمين الذى له حق الأمر لأنه الله ، ولأنه الخالق الذى خلق كل شىء : "ألا له الخلق والأمر " (الأعراف : ٥٤) . ثم انه صادر من العليم الخبير الذى يعلم حقيقة النفس البشرية كما لا يعلمها أحد ،

أفيلتزم الناس في الجاهلية بالأمر الصادر من الدولة ، أي من بشر مثلهم ، ولا يستنكفون ذلك ، ثم يستنكفون أن يلتزموا بأمر رب العالمين ويقولون ان هذه سلبية معيبة ؟! ان الذين يستنكفون من عبادة الله الحق . وطاعته ثم يعبدون آلهة مزيفة ويطيعونها ، أولئك الذين في قلوبهم مرض ، وليس لكلامهم وزن وان وضعوه في صورة نظريات سياسية أو تربوية أو تعليمية .. الخ .

ونقول أخيرا ان التربية الاسلامية الصحيحة ليست قهرا ، فان القهر لا يربي النفوس على شيء ! انما هو تعويد على فعل الخير . تعويد يتم عن طريق القدوة الصالحة بادىء ذي بدء . وقدوة المؤمنين جميعا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدوة الأطفال هي الوالدان المسلمان اللذان يقتديان برسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم بعد القدوة تجيء الموعظة ، والثواب والعقاب ، وتجيء وسائل كثيرة أخرى ليس هذا محال التفصيل فيها . انما نقول فقط ان الجيل الذي رباه الرسول صلى الله عليه وسلم - وهو أعظم مرب في تاريخ البشرية - لم يكن يعاني القهر ، ولا السلبية ، ولم يكن جيلا من المصابين بالعقد النفسية ولا العصبية ، ولا جيلا من الامعات !

وهذه هي التربية الاسلامية لمن شاء حقا أن يربي الناس !

محمد قطب
أستاذ بكلية الشريعة
قسم الدراسات العليا الشرعية
مكة المكرمة